صالحة هذه المرة. إذ يعتبر باشلار "أن هذا الانتقاد المزدوج كان واقعي الأصل حقا"[1].

وعليه فعقلانية باشلار تجريبية في أساسها، وإن كان مفهوم التجريب هنا لا يأخذ مفهوما كلاسيكيا، التي يركز على إدراك الحواس للعالم الخارجي، ولا مفهوما يقف عند التجارب الأولى المباشرة، ولا عند الذين يحصرون التجريب في كل ما هو مادي محض، متجاهلين المفاهيم العلمية الجديدة، وخاصة منها الفيزيائية والمتعلقة بمفهوم المادة وارتباطها بالإشعاع من جهة، ومن جهة ثانية أين صارت المادة عند العلماء، هي الطاقة، إن التجريبي عند باشلار هو الذي لا يقبل بالتجارب الأولى ويتجاوزها ليتخطى الحدود التي قد يعيد العالم عند دراسة الظواهر كما هي. ولهذا نراه يقر بالتجربة المزدوجة كما يذهب إلى ذلك مجموعة من العلماء.

٣- متفتحة OUVERTE

ونحن نتحدث عن العقلانية التطبيقية، وجدنا أنفسنا أمام مجموعة من الخصائص، منها ما هو فلسفي، تمثل في النقد والجدل والموضوعية ومنها ما هو علمي، كان أولها التطبيق وثانيها التجريب، وثالثها التفتح. هذه الخصائص في الحقيقة متداخلة، بحيث يصعب تناول إحداها من دون الالتقاء بالخصائص الأخرى، حتى تجد نفسك في بعض الأحيان تكرر نفس الخطاب، ولهذا جاء تصنيفنا هذا في الحقيقة منهجيا، أما معرفيا فهو شيء يصعب تحقيقه.

قلت هذا الكلام، لأنك وأنت تريد التحدث عن العقلانية التطبيقية واصفا إياها بأنها **متفتحة** تجد نفسك ملزما بالتطرق إلى خاصية الانتقاد،

([1]) G. BACHELARD: le nouvel esprit scientifique, p 110.

وبجوارها الجدل لماذا نقول هذا الكلام؟ لأن عقلانية باشلار كما سبق الحديث في فصول سابقة، عقلانية ترفض النسقية systématique، وتبدو النهائية وتبتعد عن المطلقية، ومنه فهي قد انتدبت نفسها لانتقاد كل المدارس الفلسفية من دون استثناء، ودعت إلى تأسيس عقلانية متجددة، متفتحة، لا تعرف مفاهيمها الثبات، ولا مقولاتها المطلقية، ولا معارفها النهائية، إنها عقلانية في سجال ونقاش فلسفيين على الدوام.

يقول باشلار واصفا عقلانيته التي تجادل نفسها، وتعترف بأخطائها وتعمل على تصويبها وتصحيحها "**ما من فشل جذري، لكن ما من نجاح نهائي. فالفكر العلمي بفعل تطوراته بالذات، هو في طريق تحولات مستمرة لأسسه، في طريق معاودات انتظام متواصلة. علينا إذ بدون توقف إعادة الانتباه إلى هذا الهدب حيث تتنازع العقل ارتياحات إجمالية، وعدم رضي جزئي، حيث كثير من الأمور يسير في الطريق القويم، فيما ثمة شيء ما لا يجري كما ينبغي**"[1].

يلح باشلار دوما على الصلة بين ما تم معرفته بصورة أساسية، وما هو قابل لأن يعرف قريبا "مع وضع غير قابل للمعرفة خارج اللعبة، بكل وضوح، ففظاظة اللا معقول لا يسعها هنا أن تجبر على القنوط عقلا يعمل"[2].

يطرح باشلار هنا إمكانية الجدال بين ما هو عقلاني وما هو تجريبي، هذا الجدال يتخذ شكلا واضحا للغاية، بالنسبة له في أية جهة، تبرز العبارة أن لضوء ارتجاج واضحة، مميزة، حقيقية، خصبة؟ هل هي هكذا في جهة الواقعية، التجريبية، الوضعية؟ أم في جهة الرياضيات العقلانية؟ يجيب باشلار على هذه الأسئلة موضحا خصائص الاتجاه التجريبي، ومواصفات الاتجاه العقلاني، ليطرح لنا البديل المتميز له وهو العقلانية المتفتحة

([1]). غاستون باشلار: العقلانية التطبيقية،، ص ١٠١.

([2]). المصدر نفسه: ص ١٠١.

فيقول:"ليس بالإمكان أن تترك الإجابة مجالا للشك بالنسبة إلى من يدرس المسائل العلمية كما هي، في ناحية الواقعي، كل شيء **إبهاظ ، فرضية تقرير مجاني ظن، في ناحية العقلاني كل شيء بناء، استنتاج، تثبيت جلي، كل شيء برهنة وإثبات**، ففي ناحية العقلاني إنما تطرح المسائل، وإذا العلم الفاعل. أما الواقعية، والتجريبية، والوضعي، فتبرز هنا **كأجوبة نهائية، بل ختامية حقا**. وأما العقلانية، فهي على العكس دائمة **الاستعداد لاستئناف النقاش لاستثارة أبحاث أخرى**"[1].

يقول باشلار هذا الكلام لما رآه من مواقف بعض الفلاسفة والعلماء، الذين يصفون العلم بالوحدة، أو بأنه يتعطش للوحدة. متجاهلين ما سجله العلم من تقدم كبير، هذا التقدم يكسر كل ما هو يقيني كل ما يرمز إلى الوحدة، ويفتح المجال أمام كل ما هو متنوع متعدد، ما هو خاضع للمجادلة، ومصادر استلهامه لهذه الأفكار والمواقف وتباين غاياتها وخصوصا العلم الحديث "غالبا ما يتردد القول بأن العلم متعطش للوحدة إنه ينزع إلى تماهي الظواهر ذات المعالم المختلفة، ويبحث عن البساطة أو الاقتصاد في المبادئ وفي المناهج، والعلم سرعان ما يكتشف هذه الوحدة، إذا استطاع التوجه إليها، وفي المقابل تماما، يسجل التقدم العلمي، أوضح مراحله من خلال **تخليه** عن العوامل الفلسفية للتوحيد السهل مثل وحدة عمل الخالق، وحدة مخطط الطبيعة، لوحدة المنطقية"[2]. القصد من هذا الكلام رغم ما فيه من مبالغة، والذي قد يعتبره البعض لا أساس له من الصحة، لكونه يقف من مسألة الوحدة موقفا سلبيا، ولا يتسع المقام لمناقشته هنا. لكن قلت القصد منه أن عوامل الوحدة التي ذكرها ما تزال تؤدي دورها فاعليتها في الفكر الما قبل العلمي في القرن الثامن عشر، إنها بالنسبة له لم تعد تذكر أبدا. ويعتبر سعي

([1]). غاستون باشلار: العقلانية التطبيقية، ص، ٣١٦- ٣١٧.

([2])G. BACHELARD: la formation de l'esprit scientifique, p 16.

العالم المعاصر إلى الجمع بين الكوسمولوجيا La Cosmologie والثيولوجيا La Théologie إدعاء مفرط.

في هذا السياق يعطينا باشلار مثالا يدلل به على ما ذهب إليه، كون البحث العلمي في تفاصيله وإزاء تجربة محددة تماما يمكن تسجيل هذه التجربة، كتجربة واحدة، وتاما حقا، بحيث أن العقل العلمي لا يمكنه أن يبدل من شروط التجربة، لكي يخرج باختصار من تأمل الذات ويبحث عن الآخر. ولكي يضفي أيضا الجدلية على تجربته "ومثال ذلك أن الكيمياء تضاعف وتكمل سلاسلها المتناظرة، إلى أن تخرج من الطبيعة، لكي تشخص الأجسام الافتراضية، نسبيا التي يقترحها الفكر الإبداعي. كذلك هو الحال في كل العلوم الدقيقة، إذ أن فكرا قلقا، يتحفظ اتجاه ماهيات ظاهرة نسبيا. وينشد باستمرار المزيد من الوضوح (...) المزيد من مناسبات التمييز والتفريق، **إن التوضيح والتصحيح والتنويع هي من أنماط الأفكار الناشطة التي تتهرب من اليقين Certitude والوحدة L'unité**"[1]. هذه الأفكار تجد في المنظومات الفلسفية والعلمية المؤتلفة، عقبات أكثر مما تجد من المحفزات l'impulsions.

خلاصة القول هو أن الإنسان المدفوع بالعقل العلمي، يرغب دونما شك في أن يعرف، ولكن لكي يحسن التساؤل interroger والاستجواب بعد ذلك[2].

ينقلنا باشلار بعد هذا المثال إلى أمثلة أخرى يأخذها هذه المرة من ثنائيات الفكر الهندسي، ثنائيات الهندسة الإقليدية والهندسة اللاإقليدية، فيرى أننا سنجد، إلى جانب المعرفة التي تزيد وتؤدي إلى تغيرات تدريجية في الفكر العلمي، سنجد سببا يدعو "إلى تجد يكاد لا ينصب في الفكر العلمي، سنجد نوعا من ميتافيزياء، جديدة رئيسية، والواقع أن الفكر العلمي إذ

([1]) G. BACHELARD: la formation de l'esprit scientifique, p 16.

([2]) Ibid: p 16.

يتحرك بين حدين متعارضين فينتقل مثلا من (الإقليدي) إلى (اللاإقليدي)، أشبه شيء بفكر تكتنفه منطقة تجديد. وإذا ما حسب الباحثون أن ليس ثمة سوى وسائل تعبير، سوى لغة ميسرة بعض الشيء. فإنهم لا يمنحون إلا أهمية ضئيلة لتفتح هذه اللغات الجديدة"[1]. وإذا حسبوا أن هذه التعابير معبرة إلى حد ما. وأنها منطلق إيجاد كبير بعض الشيء وأنها تقود إلى تحقيقات على قدر من الكمال. يقف باشلار ملحا على هذا التعارض القاطع valeur dialectique ويعطيه قيمة في هذه المذاهب الجديدة مثل الهندسة اللاإقليدية. والقياس اللاأرخميدسي archimédienne، والميكانيك اللانيوتني non newtonienne لدى أينشتين Einstein، والفيزياء اللامكسوبلية لدى بوهر Bohr"[2].

يبين باشلار هذه الثنائيات المعبرة في ظاهرة عن جملة من السلوب ليصحح وما يقع في أذهان الناس من سوء فهم قائلا:

"ليس في هذه السلوب شيء آلي، وينبغي ألا نعتقد أن ثمة نوعا من السلب البسيط الذي يكتفي بإرجاع المذاهب الجديدة وإعادتها منطقيا إلى الأطر القديمة. بل إن في الأمر توسيعا حقيقيا. إن الهندسة اللاإقليدية لم تصنع لتناقض الهندسة الإقليدية، وإنما هي بالأحرى كالعامل المساعد الذي يتبع للفكر الهندسي التأليف الكلي والاكتمال (...) والأمر على هذا النحو في جميع أشكال الفكر العلمي الجديد التي تأتي بعد ذلك، فتضفي نورا خلفيا على ظلمات المعرفة الناقصة وسنجد (...) نفس صفات التوسيع والاستدلال، والاستقراء، والتعميم، والتتمة، والتركيب، والتجميع وكل صفة من هذه

([1]) G. BACHELARD: le nouvel esprit scientifique, p 08.

([2]) Ibid: p 09

الصفات تتم عن بديل لفكرة الجدة، وهذه الجدة عميقة لأنها ليست جدة كشف، بل جدة طريقة ونهج"[1].

عندما يذكر باشلار هذه الثورات العلمية المتصلة بمفهوم واحد، أو بعدة مفاهيم، إنما كان قصد إلى لفت النظر، أن هذه الثورات تواكب في الزمان ثورات عامة ذات **فاعلية وتأثير كبيرين** وعميقين في تاريخ الفكر العلمي، إنها تشكل بالنسبة له، دلال على أن كل شيء يمضي جنبا إلى جنب **المفاهيم وإنشاء المفاهيم**. مع الإشارة إلى أن الأمر لا يتوقف على تبدل معنى كلمات، ويبقى الترابط ثابتا، كما قد يتوهم البعض. بالإضافة إلى أنه ليس أمر ترابط متحرك حد قد يفوز دائما بالكلمات ذاتها التي يترتب عليه أن ينظمها "**إن العلاقات النظرية بين المفاهيم تبدل تعريفها كما يبدل تغيير تعريف المفاهيم علاقاتها المتبادلة، وبتعبير أمعن في الفلسفة، يمكننا التأكيد على أن الفكر تتبدل صورته، إذا ما تبدل موضوعه**"[2]. ومنه فالفكر العلمي مفتوح من حيث تبدل الصورة ومن حيث تغير الموضوع المدروس.

ويواصل باشلار محاربته للنزعة التي ترى في ثبات المبادئ والمناهج وحتى النتائج العلمية ومنه عدم إقرارها بتطور وديناميكية الفكر. إذ يشير إلى أن هناك ضرورة تصفها حركية العقل تتمثل في تجديد طريقة الفكر، وأن قوام بنيته ليس تراكما للمعارف. إننا حسب رأيه إذا قبلنا حقا أن الفكر العلمي في جوهره يعني إنشاء الموضوعية، وجب"أن نستخلص أن مستنداته الحقيقية هي التصحيحات وتوسيعات الشمول، وعلى هذا النحو كتابة التاريخ الحركي للفكر. فالمفهوم يحظى بمعنى أكبر، في تلك اللحظة بالذات التي يتغير فيها معناه. وإذ ذاك يصبح حدثا من أحداث إنشاء المفاهيم (...) إن الفكر اللانيوتوني يمتص على هذا النحو الميكانيك المدرسية ويتميز عنها (...) بل

([1]) G. BACHELARD: le nouvel esprit scientifique, pp 09, 10.

([2]) Ibid: p 67.

إنه يلقي نورا شديدا وجديدا على ما كان يعتبر منيرا بذاته. إنه يخلق إيمانا أقوى من الإيمان الساذج بما أصابه العقل في باد أمره من نجاح. لأنه يثبت بنفسه لنفسه **أن قوامه التقدم**"[1].

يلخص باشلار هذا النص بقوله أن هذا التقدم يظهر تفوق الفكر المتكامل على الفكر الأولي la pensée élémentaire، إنه بالنسبية يتخذ الفكر العلمي من ذاته حكما على ماضيه الروحي[2].

هذه النسبية التي تطبع الفكر العلمي المعاصر والناجمة عن الثورة التي أحدثتها أبحاث الفيزيائيين وعلى رأسها أينشتين، جعلت العلماء لا يقفون عند مفاهيم واحدة حول موضوع معين، مثل مفهوم الجسيم وعلاقته بالسرعة، وارتباطه بالهوية. أين أثبتت الدراسات الفيزيائية والرياضية المعاصرة عن مبدأ جديد سماه هيزنبرغ بمبدأ اللاتعين أو كما يسميه البعض الاحتمية indéterminisme يورد باشلار مثالا على ذلك، فيقول:

«ومن الواجب أن نصبغ الآن هذا القول في حلة وضعي، فنقول حيثما تفعل النقطة، توجد. فكما يقول الأستاذ لويس دوبروي في الميكانيك الموجبة: **"إننا لا نتصور بعد الآن النقطة المادية ذاتا مجردة سكونية لا تمس سوى منطقة صغيرة جدا من المكان، وإنما نتصورها مركز ظاهرة دورية منتشرة حول المكان كله"**. ثم كيف يمكن أن نعزو إلى الجسيم سرعة محددة تماما مادمنا لا نستطيع أن نقول بوحدة هويته في الزمان؟ إن صور ميكانيك النقطة، كل هذه الصور تضطرب الواحدة، بعد الأخرى، فمادمنا لم نعد نستطيع التعرف على الجسيم، فلن نستطيع إذن العثور عليه، واقتفاء أثره"[3].

---

(1) Ibid. pp 68, 69.

(2) G. BACHELARD: le nouvel esprit scientifique: p 60.

(3) ibid: pp 112, 113.

إن هذا العجز من طرف العلماء عن اقتفاء أثر الجسيم والعثور عليه يجعل حركته لا تترجم، بالمعنى الصحيح، على محرك، وأن مادته تأبى تماما عن مبدأ الهوية. مبدأ البقاء في الوجود. يقول باشلار مغيرا نظرة العلماء إليه، لا من حيث هو مادة وإنما من حيث هو جملة اهتزازات:"فإذا نظرنا إليه من حيث أنه جملة ظاهرات اهتزازية des phénomènes vibratoires وجدنا **شيئا يعاد بناؤه أكثر منه شيئا محفوظا** وأخيرا ينبغي أن نرفض تحلي الجسيم corpuscule مباشرة بصفات معينة، وذلك كي تجعل اكتسابه للصفات، وهو اكتساب مستمر إلى حد ما يتم عن طريق البناء غير المباشر"[1].

هكذا إذن يتبين لنا ضرورة اتصاف العقلانية بالانفتاح على كل ما هو جديد، وهي في كل لحظة تعيد النظر في المعارف السابقة، إنها مطالبة- كما يقول باشلار- بأن تكون **منفتحة** بالقدر الكافي لتلقي تحديدات جديدة من التجربة. وكنتيجة للجدلية التي تعيشها هذه العقلانية، ينتهي المرء إلى الاقتناع بالواقعية البارزة للحقول الفكرية. هذه الحقول الابستمولوجية تتبادل قيم العقلاني والتجريبية[2]. **إن الواقعية ينبغي أن تكون منفتحة على العقلانية والعقلانية بدورها يجب أن تكون منفتحة على الواقعية**، أما وأن تكون هنا واقعية مطلقا أو عقلانية مطلقا، فهذا ما يرفضه باشلار "إن جعل العالم في الوقت نفسه واقيا مطلقا، ومنطقيا دقيقا، يقود إلى مقابل فلسفات عامة، غير مؤثرة بعضها ببعض، فلسفات كهذه ليست فلسفات في حيز العمل، بل فلسفات خلاصية لا تستطيع النفع، إلا في تمييز الحقبات التاريخية، بفعل التطورات التقنية، يغير **الواقع المدروس** من قبل العالم هيئته،

([1]) G. BACHELARD: le rationalisme appliqué, p 04.

([2]) G. BACHELARD: le rationalisme appliqué, p 04.

بشكل يفقد معه هذه الخاصية من **الثبات** الذي تتأسس عليه الواقعية الفلسفية"[1].

هذا التغير الذي يحدث للواقع، والذي يغير فيه العالم هيئته، ناجم أصلا أن الواقع الكهربائي في القرن التاسع عشر، شديد الاختلاف عن الواقع الكهربائي في القرن الثامن عشر. إن هذا الواقع تتكاثر حوله جدليات التحليل والتركيب والبناء والانتقاء والتحقيق، يقول باشلار:"إن علما مصوبا باستمرار، في مبادئه وموادّه، لا يستطيع تلقي تسمية فلسفة موحدة une philosophie unitaire، وهو جدلي ليس فقط في دقة مناهجه، بل أيضا في المثال المزدوج لترابطه النظرية، ودقته الاختبارية"[2].

إن جملة المعارف الحالية إنما توضح ماضي الأفكار العلمية، إن هناك اعتقادا إذا بوجود عقل متكون قبل كل جهد للعقلنة، وبرونشفينغ في هذا الوضع المطلقي ضعفا، إنه كثيرا ما شدد على **النسبية الجوهرية للعقل والتجربة**، وهذا العقل إنما يستمد نسبيته من فعل التصويب وهذا الأخير هو نتيجة لجملة تطبيقاته إنه في حركية طالما أن العالم متحرك[3].

وصفة الانفتاح على نتائج العلوم التي تمتاز بها العقلانية، جعلت باشلار يصف بها فلسفة العلوم بقوله:"وباختصار، إنها الفلسفة المنفتحة الوحيدة وكل فلسفة تطرح أسسها كأنها لا تقبل المساس وتطرح حقائقها الأولى كأنها حقائق كلية وكاملة، كل فلسفة أخرى تتمجد بانغلاقها"[4].على هذه الفلسفة المنفتحة أن تكون مسايرة لتطور العلم متكيفة معه حق التكيف، يتساءل باشلار حول هذه الفلسفة التي تريد أن تكون كذلك "**والحال كيف**

([1]) Ibid: pp 08, 09.

([2]) Ibid: p 09.

([3]) Ibid: p 09.

([4]) G. BACHELARD: la philosophie du non, p 07.

تتعامى عن فلسفة تود أن تكون متكيفة حق التكيف مع الفكر العلمي الدائم التطور، ولا يلزمها النظر في أثر المعارف العلمية على البنية الفكرية؟ (...) إنها مسألة البنية وتطور العقل (...) لا يمكن للعقل العلمي أن يتكون إلا وهو يحطم العقل غير العلمي، ففي أغلب الأحيان يستوثق العالم بعلم تربوي مجزأ في حين يفترض بالعقل العلمي أن يرمي إلى إصلاح ذاتي شامل. إن كل تقدم حقيقي في الفكر العلم يستوجب انقلابا/ تحولا. وإن تقدم الفكر العلمي المعاصر عين تحولات وطفرات في أسس المعرفة ذاتها"[1].

إن العقلانية ذات بنية متحولة، متطورة، تخضع لإصلاح ذاتي شامل تحطم ذاتها، من أجل تأسيس ذاتها ثانية، تعرف انقلابا في أسس معرفتها، وكل ذلك شرط صحتها وبقائها.

وإذا كان باشلار يعلي دائما من شأن العقل على حساب التجربة، رغم تأكيده على دور التجريب في تصويب العقل، وتصحيح أخطائه، فإن البعض قد يصفه ضمن زمرة الفلاسفة العقليين، وهو عندما يؤكد على ارتباط العقل بالواقع قد يصنفه بعض المؤرخين ضمن الفلاسفة الواقعيين. وفي الحقيقة فإن فلسفة العلم لا تستمد من المذاهب الفلسفية الجاهزة، بل من دراسة للمعرفة العلمية وتاريخها. إنها فلسفة تعمل على تطويع التصورات الفلسفية حتى تراعي **التحولات** التي عرفها تاريخ المعرفة العلمية، لذلك يصعب أن نجعل من فلسفة العلم **نسقا فلسفيا متميزا**، إنها الفلسفة التي يسمح بها العلم انطلاقا من العلم نفسه.

إنه يعمل على أن يقدم للعلم المعاصر الفلسفة التي يستحقها، فهو لا يعتبر أن المثالية هي الفلسفة التي يقوم عليها العلم. ومثال ذلك أن المثالية التي تطبع فلسفة "بركلي Berkeley" تتجاهل البنية الثقافية للفكر كما تتجاهل الفلسفة الواقعية الصبغة العقلية للتجربة العلمية. إن المثالية بهذه الصورة

([1]) G. BACHELARD: la philosophie du non: pp 07, 08.

تستند إلى التجربة المباشرة، بينما تفترض المعرفة العلمية تركيب الواقع وتنقيح التجربة وفق تصورات علمية جديدة.

ولهذا يخلص باشلار إلى أن الفلسفة المثالية شأنها شأن الفلسفة الواقعية، لا يمكنهما أن يفسرا التفاعل الموجود في المعرفة العلمية بين مناهج البحث والتجارب التطبيقية. ويضيف إن الفلسفة التي يسمح بها العلم المعاصر ينبغي عليها أن تؤدي دور الوسيط بين هذين الفلسفتين (المثالية والواقعية)، إنها الفلسفة العقلانية المطبقة. والدليل على ذلك هو: **أن النظريات العلمية لا يمكن أن تتحول إلى أنساق مغلقة، لأن التطبيق وسيلة لتنقيحها، كما أن التجربة لا يمكن أن تكون مفصولة عن النظري لأن لها صبغة عقلية**[1].

يذهب باشلار إلى أبعد من هذا عندما يؤكد على أن بنية العقل ليست ثابتة كما ذكرنا ذلك في الباب الثاني، إن الفلسفة التي تفترض بنية ثابتة للعقل هي فلسفة بالية. **إن العقلانية بالنسبة لباشلار لا تمثل فلسفة مبادئ، بل فلسفة بحث**، إنها تدرس بنية العقل المتحولة كما تجسمها النظريات الجديدة التي يتوصل إليها العلم، **إنها تدرس حركة المعرفة في صيرورتها التاريخية من خلال التفاعل المستمر بين العقل والتجربة**[2].

ونستطيع أن نختم كلامنا عن كون العقلانية التطبيقية منفتحة بذكرنا لنقطة أساسية يؤكد عليها باشلار في إحدى مؤلفاته " engagement' Rationaliste "عندما يعتبر هذا التفتح بالنسبة للعقلانية المطبقة ليس اختبارا بل ضرورة. وتأتي هذه الضرورة من كون أن هذه الفلسفة التي أسس لها مشروعا تريد أن تكون فلسفة الفكر العلمي الذي أظهرت نتائجه ونظرياته مدى اتصافه بصفة التفتح، هذا التفتح الذي يمس ليس الفلسفة

---

(1). غاستون باشلار: حدس اللحظة، ص ٦٩.

(2) G. BACHELARD: la philosophie du non,p 145.

فقط، بل يمس العلم نفسه، عندما يدعوا إلى إعادة النظر في مبادئه الأساسية وفي مفاهيمه الأولية كذلك[1]. يقول باشلار: **"فكل الفلسفات الأخرى تطرح مبادئها كمبادئ لا يكمن المس بها، وحقائقها الأولى كحقائق عامة ومنتهية، كل فلسفة أخرى تتباهى بانغلاقها"**[2]. ولهذا يعد التفتح شرطا لازما للعقلانية إذا ما أرادت أن تكون مطابقة للثورة المعرفية العلمية التي يشهدها العصر الحالي.

ويشترط في العقلانية المطبقة إذا أرادت أن تكون منفتحة أن تتجاوز أو تمحو الوثوقيات الفلسفية التي تعيق العقل بصفة عامة، والعقل العلمي بصفة خاصة. إنها عقلانية تفك القيود عنها وتنظر إلى مستقبلها إلى ما يمكن أن يقدم لها من جديد إن على مستوى النظري وإن على المستوى العملي، وإن على مستوى المناهج، وإن على مستوى النتائج. إنها عقلانية يقظة حذرة متحفظة لا تقبل الانغلاق حول نفسها. وتستفيد من العبر وتتقبلها، ويتوجب عليها أن تخضع للعلم. كعلوم الهندسة والفيزياء وعلم الحساب والعلوم كلها. ولا مجال للحديث عن عقلانية مطلقة ثابتة وإن كانت فهي بالية وبائدة. إن ينبغي أن تكون مرنة ومتسعة، أن تؤسس على أسس جديدة كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

([1]) G. BACHELARD: l'engagement rationaliste, p 52.

([2]) G. BACHELARD: la philosophie du non, p 52.